

إميل توما: مؤرّخ القضية الفلسطينية

أحمد هاني محاميد*

إميل توما: حياته وآثاره -1919-1985⁽¹⁾

ولد إميل توما في 1919/3/16 لعائلة حيفاوية فلسطينية موسرة في مدينة حيفا، وتوفي في 1985/8/27 في المستشفى المركزي في العاصمة الهنغارية بودابست بسبب مرض عضال ألمّ به، وقد نقل جثمانه إلى حيفا مسقط رأسه ودفن فيها. تلقى إميل توما تعليمه الابتدائي في مدرسة الطائفة الأرثوذكسية في حيفا، انتقل بعدها إلى مدينة القدس لتلقّي تعليمه الثانوي في مدرسة "المطران جوبات" التبشيرية الإنجليزية الدأخلية، التي كانت تُعرف، وقتذاك، بكلية صهيون، نظراً لوقوعها على جبل صهيون⁽²⁾. لكنّه توقّف عن الدراسة ولم يتسنّ له إتمام تعليمه الثانوي مع اندلاع الثورة في فلسطين عام 1936. تأثر إميل توما بالمدّ الثوري للحركة الوطنية الفلسطينية، وبمعلّم اللغة العربية في تلك المدرسة؛ الأديب التّقديمي والماركسي اللبناني رثيف خوري⁽³⁾ الذي يعدّ زارع بذرة الاشتراكية والشُّيوعية في فلسطين آنذاك، وزميله الصّحافي الشُّيوعي عبد الله بندك. في عام 1937 سافر توما إلى بريطانيا سعياً في طلب العلم، حيث التحق بكلية الحقوق في جامعة "كمبريدج"، لكنّ دراسته توقّفت، مرّة أخرى، في عام 1939 بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية. يقول صديقه ورفيق دربه زاهي كركبي⁽⁴⁾ "قال لي مرّة: "كما تعلم درست في مدرسة صهيون

* باحث ومدرّس - أم الفحم.

¹ - عمل، إسكندر. دراسات في مؤلّفات إميل توما. حيفا، 1989. ص.6.

² - المصدر السابق. ص.6.

³ - أديب وقصصي لبناني. (1913-1967).

⁴ - من سكّان حيفا، وهو أحد القادة في الحزب الشُّيوعي. (1926 - 2013/8/21)

وفي جامعة كمبريدج، ولُكِّبَ لا أحمل أية شهادة. فدراستي في صهيون توقفت بسبب الثورة، وفي كمبريدج توقفت بسبب نشوب الحرب العالميّة الثّانية⁽¹⁾. في أواسط عام 1965 التحق بمعهد الاستشراق في موسكو للدراسات العليا، حيث نال عام 1968 شهادة الدكتوراه من قسم التّاريخ في المعهد تقديرًا لرسالته "مسيرة الشُّعوب العربيّة ومشاكل الوحدة العربيّة".

مع نهاية عام 1939 انضمّ إميل توما إلى صفوف الحزب الشيوعي الفلسطينيّ السريّ، حيث قام بالاشتراك مع رفيقي دربه؛ توفيق طوبي وبولس فرح بتأسيس نادي "شعاع الأمل" في حيفا، الذي ما لبث أن تحوّل إلى مقرّ لعمّال شركات الرُّبوت وعمّال المعسكرات في المدينة. كما ساهم إميل توما في تأسيس "اتّحاد نقابات وجمعيات العمّال العرب" الذي أصبح لاحقًا النواة لتأسيس "مؤتمر العمّال العرب".

في خطوة رائدة، وبفضل جهود إميل توما ومشاركة رفيقي دربه توفيق طوبي⁽²⁾ وإميل حبيبي⁽³⁾ وآخرين، أصدر "اتّحاد نقابات وجمعيات العمّال العرب" العدد الأوّل من جريدة "الاتّحاد" الأسبوعيّة، حينذاك، في 14 أيّار 1944، حيث كان إميل توما صاحبها الرّسسي ومحرّرها المسؤول، ومنذ العام 1949 بدأ يعمل في هيئة تحرير الجريدة. فيما بعد أصبحت "الاتّحاد" جريدة يوميّة ما زالت تصدر إلى اليوم في مدينة حيفا. كما ساهم توما عام 1943 مع عدد من رفاقه ومن بينهم توفيق طوبي وإميل حبيبي أيضًا في تأسيس "عصبة التّحرُّر الوطني"، حيث تمّ انتخابه أمينًا عامًّا

¹ - www.diwanalarab.com.

² - توفيق طوبي. (1922-2011)؛ سياسي شيوعي فلسطيني-إسرائيلي، شغل منصب عضو كنيست من قبل الحزب الشيوعي الإسرائيلي وفيما بعد من قبل الجبهة الديمقراطيّة للسلام والمساواة.

³ - إميل حبيبي. (1922-1996). إميل حبيبي أديب وصحافي وسياسي فلسطيني؛ صاحب كتاب "المتشائل".

لعصبة. في 6 تموز 1947 عقد إميل توما مؤتمرًا صحافيًا في القدس تحدّث فيه عن ظروف نشأة عصبة التحرُّر الوطني في المجتمع العربي، كما عرض البرنامج السياسي والبرنامج الاجتماعي الاقتصادي لعصبة التحرُّر وسياستها الخارجية، ودورها في المجتمع. ومن مواقفه الوطنية رفضه مشروع إقامة "الدولة اليهودية" في فلسطين بوصفه مشروعًا إمبرياليًا سعى إليه الاستعمار "الأنجلو - أمريكي" لضرب حركة التحرُّر العربية في المنطقة، فيما بعد عُرفَ البيان الذي أعلنه إميل توما في مؤتمره الصحفي بـ "وثيقة إميل توما". وقد عُرفَ عن إميل توما أنّه كان من بين المعارضين لقرار تقسيم فلسطين رقم 181 الصّادر في 1947/11/29 عن الجمعية العامة لهيئة الأمم المتّحدة. مع وقوع النكبة عام 1948، غادر إميل توما فلسطين مع من غادر من أبناء شعبه اللّاجئين إلى لبنان، حيث سجن هناك في معسكر للاعتقال بمدينة بعلبك مدّة ثلاثة أشهر، مع عدد من أصدقائه الوطنيين التّقدميين مثل: الشّاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)⁽¹⁾، والمحامي حنا نقارة⁽²⁾، وذلك بسبب نشاطهم بين الجماهير الفلسطينية اللّاجئة في لبنان، من أجل عودتها إلى أرض الوطن، عاد بعدها إلى حيفا مسقط رأسه. وكان من الطّبيعي أن ينخرط في صفوف الحزب الشيوعي الإسرائيلي، الذي التأم في مؤتمر الوحدة في تشرين الأوّل عام 1948. لكنّه لم يُقدّم مدّة طويلة في صفوف الحزب (حتّى انقسام 1965) بسبب موقفه المعارض لقرار التّقسيم، كما يبدو. وعن بعض ما حدث في ذلك المؤتمر يقول صديقه ورفيق دربه زاهي كركي: "وطُلب من إميل أن يقدّم انتقادًا ذاتيًا لمعارضته قرار التّقسيم، ومع أنّه قدّم الانتقاد الدّاتي المطلوب، إلّا أنّه حُرّم من أن يكون عضوًا في قيادة الحزب. واستمرّ هذا المنع حتّى عام 1965 أي 15 عامًا. ولم ينتخب إميل للجنة المركزيّة

¹ - شاعر فلسطيني مشهور. (1909-1980).

² - محام فلسطيني مشهور، لُقّب بمحامي القضية الفلسطينية. (1912-1984).

للحزب إلا بعد الانقسام عام 1965. في العام 1981 بدأ إميل توما التّحضير لعقد المؤتمر القطريّ الأوّل للجماهير العربيّة الفلسطينيّة في الدّاخل، الّذي كان من المقرّر عقده في مدينة النّاصرة، لكن المؤتمر لم يعقد بسبب قرار رئيس الحكومة الإسرائيليّة آنذاك؛ مناحيم بيغن، استخدام أنظمة الطّوارئ وإصداره مرسومًا يمنع بموجبه عقد المؤتمر وبعلمه، مع جميع موادّه السّياسيّة والتّنظيميّة، خارج القانون.

مثّل إميل توما الحزب الشّيوعي الإسرائيلي في عدد من مؤتمرات الأحزاب الشّيوعيّة والعلميّة والسّياسيّة في العالم⁽¹⁾. يعدّ إميل توما مفكّرًا أيديولوجيًا ومؤرّخًا وسياسيًا من الدّرجة الأولى. ساهم إميل توما كمفكّر ومؤرّخ وكاتب سياسي في قيادة الحزب الشّيوعي الإسرائيلي، والجبهة الديمقراطيّة للسلام والمساواة، وفي لجنة الدّفاع عن الأرض، كذلك في الدّفاع عن الجماهير العربيّة المتبقية في الوطن، وفي الحفاظ على هويّتها الفلسطينيّة والتّمسك بها، من خلال عمله في صحيفة "الاتحاد" ومجلة "الجديد". كما دافع عن الثّقافة العربيّة في مرحلة حاولت فيها إسرائيل طمس الهوية والثّقافة العربيّة ونشر العدميّة القوميّة. وقد حُفرت على ضريحه الكلمات الآتية "لقد أحببت شعبي حبًا ملك عليّ مشاعري وأمنت بأخوة الشّعوب إيمانًا عميقًا لا تحفّظ فيه"⁽²⁾! ترجمت مؤلّفاته إلى عدّة لغات عالميّة من بينها: الرّوسيّة والألمانيّة. كما ترجم بعضها إلى العبريّة. ولو تأملنا هذا التّكوين الكتابي لدى إميل توما، لوجدناه تكوينًا متنوعًا وفي مجالات متعدّدة، ابتداءً من الكتابة في الأدب والنّقد الأدبي والثّقافة والتّاريخ والسّياسة. ولعلّ من أهم ما يميّز كتابات إميل توما، دأبه على بعث الأمل وروح التّفاؤل، ونشر الخير، والثّقة انتصارًا لصالح الإنسان وأهداف الطبقة العاملة كما يدعو إلى تغيير الواقع الاجتماعي، أو إلى إصلاحه وتحسينه في أقلّ

¹ - دراسات في مؤلّفات إميل توما. ص 8.

² - www.diwanalarab.com.

تقدير كما يراه من منظوره الماركسي. يركّز توما في كتاباته على المضمون أو الموقف، انطلاقاً من إيمانه بأنّ وظيفة النصّ الأدبي تكمن في المضمون والموقف أولاً وقبل كلّ شيء. من هنا، تجد أنّ اهتمامه ينصبُّ بالدرجة الأولى على المضمون، حتّى إنّه لا يكاد يذكر الشكل إلّا عَرَضاً. يشار إلى أنّ إميل توما اهتمّ بالمدرسة الواقعيّة والنظريّة الاشتراكيّة، ولم يول سائر المدارس الأدبيّة والنقدية أيّ اهتمام تقريباً، ودعوته الدائمة إلى أدب ملتزم يرتقي إلى مستوى الأحداث وتحدياتها. أمّا قيمة الأدب، في منظوره، فإنّها تنفّر موضوعياً يلها سائر الاعتبارات الأخرى. كما يشدّد على ضرورة التزام الكاتب ووقفه إلى جانب قضايا شعبه وهمومه، والإنسان بالملق، كذلك إلى جانب قوى الخير والحريّة والإنسانيّة، في كلّ مكان وزمان. مؤكّداً العروة الوثقى بين الأدب والمجتمع من خلال تناوله لموضوعات عصره وقضاياها. ويلحظ المتابع أنّ هاجس البحث عن الهويّة المحليّة ما انفكّ يلازمه في كتاباته النقدية مثال ذلك مقالته (قصص بدون هويّة، الجديد، العدد 7 تمّوز/ آب 1969) التي تعدّ من أهمّ مقالاته التي كتبها في النّقد الأدبيّ تحت الاسم المستعار "ابن خلدون"، وهي ممّا يسترعي الانتباه وتجدر الإشارة إليها. تناول من خلالها المجموعة القصصيّة "البرّ المسحورة وقصص أخرى" وقد اتّسمت تلك المقالة بأنّها أكثر حدّة وجرأة وعمقاً من سابقتها. كذلك، سخر فيها وفنّد ما ورد في مقدّمة المجموعة من مزاعم بأنّ أحد العوامل التي شجّعت على نشوء الأدب الفلسطينيّ المحليّ، هو نشاط كُتّاب العربيّة وشعرائها ممّن قدموا إلى فلسطين من يهود العراق في الخمسينات. يقول: "من المضحك لا المبكي - على اعتبار أنّ شرّ البليّة ما يضحك - أن يدخل الاستعلاء القومي بهذا الشكل الصّبيانيّ عند تقويم الأدب العربيّ... وكانّ "رسالة التّمدين" الإسرائيليّة شملت لا "إيصال التّراكتور" إلى القرية العربيّة فحسب، بل بعث الأدب العربيّ من جديد" كما أخذ عليهم ابتعادهم عن الواقع!. وقد أفصح إميل توما عن

منهجه في النّقد الأدبيّ مركّزًا على ميزتي الصّدق والجرأة وتقديمهما على ما عدهما، حيث يقول: "إنّني أنتسب إلى طينة من النّقاد يقيسون الأدب بصدقه وجرأته.. وإذا فقد عمل فنيّ الميزتين فقد مقوّمات الأدب"! ما يُعرف عن إميل توما، في نقده الأدبيّ، أنّه مسكون بهاجس الواقعيّة والواقعيّة (الجديدة) الاشتراكيّة تحديداً، فهو لا يزن إلّا بميزاتها، ولا يقيس إلّا بمقياسها. وإذا كان يغلب عليه استعراض سريع ومقتضب للمضمون، فإنّه لا يفرد أكثر من بضع جمل للكلام في الشّكل، دون أن يأتي على ذكر النّواحي الفنيّة.

ينظر توما إلى الأدب على أنّه وليد رؤية صاحبه الأيديولوجيّة، وأنّ للظُّروف الموضوعيّة والأوضاع الماديّة دورًا حاسمًا في بلورة تلك الأيديولوجيّة التي تنتج الأدب في كلّ مجتمع، كما يرى أنّ للعوامل الاجتماعيّة والاقتصاديّة دورًا أساسيًا في تشكيل المجتمع؛ كما يؤكّد أنّ أيّ نصّ أدبيّ، مهما بلغت صياغته اللّغويّة من فنيّة أو جماليّة لا قيمة له إلّا بما يحويه من مضمون؛ جوهر النّصّ الثّمين. والمضمون يجب أن يعكس، بالدّرجة الأولى، الواقع بما يحويه من تجارب ومعاناة وتأمّلات ويلمس الإنسان السّاكن فيه. وقد يؤخذ على هذا النّقد الأدبيّ، الواقعيّ الاشتراكيّ، كثرة الاهتمام والتّركيز على المضمون لاسيّما لجهة الصّراع الطّبقيّ، دون الالتفات إلى سائر القيم الشّكليّة والفنيّة الأخرى، وبطبيعة الحال أن يأتي ذلك على حساب جماليّة النّصّ وفنيّته وقيمه الأخرى.

خصّ إميل توما القضية الفلسطينيّة بأربعة مؤلّفات هي: "جذور القضية الفلسطينيّة" و"60 عامًا على الحركة القوميّة العربيّة الفلسطينيّة" و"منظّمة التّحرير الفلسطينيّة" و"الحركة القوميّة العربيّة والقضية الفلسطينيّة"، لهذا أطلق بعضهم عليه لقب: مؤرّخ القضية، حيث دخلت كتابة التّاريخ الشّامل للقضية الفلسطينيّة

رحاب الفكر السياسي من بابه الواسع⁽¹⁾. يعتمد إميل توما في تحليله للأحداث في كتاباته التاريخية لاسيما عن الحركات الاجتماعية على المادية الدايكتيكية والمادية التاريخية، في ضوء الفلسفة الماركسية والصراع الطبقي. وتعد تلك النظريات أو المناهج من المؤثرات الأساسية التي ساهمت في تكوين فكره النقدي والثقافي على السواء.

مؤلفاته⁽²⁾

ألّف إميل توما خمسة عشر كتابًا، وكتب مئات المقالات في الأدب والنقد الأدبي والسياسة والتاريخ والحضارة، أمّا كتبه فهي:

1. العرب والتطور التاريخي في الشرق الأوسط. دار "الاتحاد"، حيفا، 1960.
2. ثورة 23 تموز في عقدها الأول. دار "الاتحاد"، حيفا، 1962.
3. جذور القضية الفلسطينية. حيفا، 1968.
4. السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط. مطبعة "الاتحاد"، حيفا، 1973.
5. يوميات شعب. (30 عامًا على "الاتحاد")، عربسك، حيفا، 1973.
6. ستون عامًا على الحركة القومية العربية الفلسطينية. البيادر، القدس، 1978.
7. الحركات الاجتماعية في الإسلام. منشورات صلاح الدين، القدس، 1979.
8. العملية الثورية في الإسلام. دار الفارابي، بيروت، 1981.
9. طريق الجماهير العربية الكفاحي في إسرائيل. أبو سلمي، 1982.
10. فلسطين في العهد العثماني. الفجر، القدس، 1983.
11. الحركة القومية العربية والقضية الفلسطينية. الأسوار، عكا، 1984.
12. تاريخ مسيرة الشعوب العربية الحديث. الأسوار، عكا، 1985.

¹ - الموسوعة الفلسطينية (الدراسات الخاصة). بيروت، 1990. ج3. ص586.

² - www.diwanalarab.com.

13. الصُّهْبُونِيَّةُ المعاصرة. الأسوار، عكا، 1985.

14. منظّمة التَّحْرِيرِ الفلِسطِينِيَّة. دار "الاتِّحاد"، حيفا، 1986.

15. مختارات في النِّقْدِ الأدبي. دار "الاتِّحاد"، حيفا، 1993.

وقد صدرت الأعمال الكاملة في 5 مجلِّدات عن معهد إميل توما للأبحاث بمدينة حيفا عام 1995. ويمكننا القول إنَّ إميل توما قد جعل جُلَّ مؤلِّفاته وكتاباتهِ في خدمة القضايا العربيَّة وعلى رأسها القضية الفلِسطِينِيَّة.

نقد كتاب "الحركات الاجتماعيَّة في الإسلام"

من خلال حديثنا عن إميل توما، قلنا إنَّ هذا الباحث المؤرِّخ انتهى إلى المدرسة النَّقْدِيَّة الماركسيَّة⁽¹⁾ اللَّيْنِينِيَّة⁽²⁾؛ والتي تؤمن بالاحتماليَّة التَّاريخيَّة، ونظريَّة الجدل الدَّايَلِكْتِيكي، وتصارع الأضداد. والقارئ في كتابات هذا الباحث، يرى وبوضوح تأثير هذه المدرسة التي استحوذت على عقله، وتحليله للتَّاريخ وعلم الاجتماع، فتراه يقول مؤكِّدًا إنَّ علم التَّاريخ بدأ بماركس؛ فهو الَّذي اكتشف قوانين تطوُّر المجتمع، وقضى بذلك على أنَّ التَّفكير المثاليَّ الَّذي أخضع التَّاريخ لنظريَّات فوضويَّة، وجعل من وقائعه خلطًا من الحوادث الطَّارئة، ومزيجًا من المصادفات العفويَّة⁽³⁾، متناسيًا دور "ابن خلدون" الخطير في فهمه لكتابة التَّاريخ، ووضعه لعلم الاجتماع.

¹ - نسبة إلى كارل ماركس (1818-1883)؛ الفيلسوف الألماني؛ واضع النَّظريَّة الاشتراكيَّة الشيوعيَّة. ومؤلِّف "رأس المال"، الَّذي يعدُّ مرجعًا أساسيًا لهذه النَّظريَّة.

² - نسبة إلى فلاديمير لينين (1870-1924)، زعيم الثَّورة البلشفيَّة في روسيا عام 1917. الَّذي حاول أن يطبِّق النَّظْمِ الاشتراكي فيها، متأثرًا بمعلمه "ماركس".

³ - توما، إميل. الحركات الاجتماعيَّة في الإسلام. منشورات صلاح الدِّين، القدس، 1979. ص 10.

كيف نفهم التاريخ؟!

كانت المدرسة الماركسيّة هي البوصلة التي يهتدي من خلالها إميل توما في نقده، وتوجّهه وتحليله، سواء كان التّحليل تاريخيًّا، أم فكريًّا، أم أدبيًّا، ولهذا رأيناه يغفل عن كثير من الجوانب التي لا تتماشى مع نظريّته الماركسيّة المتطرّفة. كان النّظام الشيوعي الذي يحلم به الباحث هو المنبع والغاية التي يحاول جاهدًا أن يثبت نظريته التي نراها بعيدة عن الموضوعيّة؛ ذلك أنّ التّأثير المادّيّ لتحليله وقراءته للتّاريخ، جعله يركّز على زاوية واحدة من التّحليل وفهم التّاريخ؛ الأمر الذي أثر تأثيرًا واضحًا على استقراراته واستنتاجاته.

اعتقد إميل توما أنّ الشيوعيّة البدائيّة سادت المجتمع الأوّل، وأعقبتها نظام الإقطاع وبعده نظام الرأسماليّة، وأكّد أنّ النّظام الاشتراكيّ سوف يرث هذه الأنظمة كمرحلة أولى للنّظام الشيوعي⁽¹⁾. ويضيف متفائلًا: "وصدق ماركس وأنجلز⁽²⁾، فقد انتصرت الثّورة الاشتراكيّة في روسيا القيصريّة وأعلامها ترفرف الآن خفاقة على أقطار في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللّاتينيّة⁽³⁾ يسكنها مئات الملايين من الإنسانيّة⁽⁴⁾. صدر هذا الكتاب عن منشورات صلاح اللّين عام 1979، حاويًا أحد عشر فصلًا.

¹- أنظر: الحركات الاجتماعيّة في الإسلام، ص 10-11.

²- فريدريك أنجلز. (1820-1895). يعتبر أبا النّظرية الماركسيّة. صاحب كتاب: "بيان الحزب الشيوعي".

³- لا بدّ من التّذكير، أنّ هذه الأنظمة تهاوت في نهاية الثّمانينات، حيث هدم حائط برلين الذي فصل بين الألمانيّتين؛ الشّرقية والغربيّة عام 1989. ومن ثمّ تمّ إعدام "تشاوشيسكو" حاكم رومانيا، حتّى أدّت هذه التّغيّرات إلى انهيار النّظام الاشتراكي في الاتّحاد السّوفياتي وباقي الدّول الأوروبيّة.

⁴- الحركات الاجتماعيّة، ص 11.

ومن خلال قراءتنا لهذا الكتاب؛ نستطيع أن نسجّل الملاحظات النّقديّة التّالية:

(1) على الرّغم أنّ الباحث اعتمد على مصادر تاريخيّة؛ إلّا أنّه استقى منها ما يتلاءم مع ميوله الفكرية، وعقيدته الماركسيّة اللّينينيّة، فرأيناه يعطي أهميّة للمصادر التّفدّميّة اليساريّة، بالإضافة إلى اعتماده المطلق على ما قرّره ماركس وأنجلز ولينين بالنّسبة لتفسيرهم للتّاريخ، والظّواهر الاجتماعيّة.

(2) نلاحظ أنّ الباحث لا يعتبر المسيحيّة أو الإسلام أدياناً سماويّة؛ بل يراها حركات ثوريّة أرادت تغيير الواقع الأليم الذي تعيشه الطبقات المسحوقة الفقيرة؛ الأمر الذي جعله يساوي بين هاتين الدّيانتين والبوديّة التي رآها تمرّدًا على البرهميّة. فرأى أنّ هذه "الدّيانات" استقبلها في البداية المقهورون الفقراء، ومن ثمّ تمّت سيطرة الطبقة الغنيّة عليها.

(3) يرى الباحث من منظوره الماركسيّ أنّ سبب غزو أبرهة الحبشيّ لمكّة هو استرجاع مكانة اليمن التجاريّة، بعدما أصبحت مكّة عاصمة التّجارة والطّبقات الغنيّة.

(4) المصادر التاريخيّة التي أخذ منها معلوماته، وأيدت فكره لم تكن موثقة توثيقًا موضوعيًا؛ ذلك أنّه يأتي-على سبيل المثال -برواية لابن الأثير دون التّحقيق من صحّتها أو عدم صحّتها، وهذا يعني أنّ الباحث كان يبحث عن الرّوايات التي تتفق اتّفاقًا مع فكره؛ مع علمنا أنّ الرّوايات عند المؤرّخين القدماء للحادثة الواحدة كثيرة ومتنوّعة؛ بل ونجد فيها التّناقض وعدم التّناسق. وقد أورد الطّبري في مقدّمة كتابه تضارب الرّوايات فقال: "وليعلم النّاظر في كتابنا هذا أنّ اعتمادنا في كلّ ما أحضرت ذكره فيه، ممّا شرطت أنّي راسمه فيه، إنّما هو على ما رُويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه، والآثار التي أنا مسندها إلى رُواتها فيه، دون ما أدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النّفوس إلّا اليسير القليل منه؛ إذ كان العلم

بما كان من أخبار الماضين وما هو كائن من أنباء الحداثين، غير واصل إلى من لم يشاهدهم ولم يدرك زمانهم إلا بإخبار المخبرين ونقل النّاقلين، دون الاستخراج بالعقول والاستنباط بفكر النّفوس. فما يكون في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ممّا يستنكره قارئه أو يستشعنه سامعه، من أجل أنّه لم يعرف له وجهًا في الصّحّة ولا معنى في الحقيقة؛ فليعلم أنّه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنّما أُتِيَ من قبل بعض ناقله إلينا، وأنا إنّما أدّينا ذلك على نحو ما أُدّي إلينا⁽¹⁾. وهذا يعني أنّه يتوجّب على الباحث أن يبحث عن صحّتها في كتب الرّجال والطّبقات.

(5) معظم المصادر التي اعتمد عليها الباحث، هي مصادر حديثة؛ حيث شكّلت السّواد الأعظم لمصادره؛ فرأيناه يعتمد عليها، دون الرّجوع إلى المصادر التي اعتمد عليها هؤلاء المحدّثين، غير مكترث بصحّتها أو عدم صحّتها.

(6) بعض الروايات أخذها الباحث من كتب لا تعتبر كتبًا تاريخيّة؛ مثل العقد الفريد لابن عبد ربّه، أو البيان والتّبیین للجاحظ؛ وبنى عليها استقراءاته واستنتاجاته طالما كانت تتفق مع تحليله المادّي للتّاريخ.

(7) طبّق الباحث تطبيقًا مطلقًا ما كتبه في المقدّمة على طريقة فهم التّاريخ حسب المفهوم الماركسي، فرأيناه يحلّل الصّراع بالمفهوم الطبّقي، ورأيناه يؤكّد أنّ الإسماعليّة هي من التّيّارات التّقدّميّة الثّوريّة، والتي يمتدحها ويُعلي من شأنها، دون التّطرّق إلى الأعمال الدّمويّة التي فعلتها كما تذكر معظم كتب التّاريخ. وفي هذا الإهمال، أو الابتعاد تطبيق للفكر الماركسي الذي ينادي به المؤلّف، وهذا ما

¹ - الطّبري، محمّد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. دار الكتب العلميّة، بيروت، 1407 هـ ج 1، ص

لمسناه - أيضًا - في الفصل الأخير من كتابه الشهير " جذور القضية الفلسطينية - حيث رأينا أن هذا الفصل يحمل كل الخصائص السياسية والعقائدية والفكرية للخطِّ الماركسيِّ الذي ينتهي إليه الباحث؛ الأمر الذي جعله يبتعد ابتعادًا واضحًا عن مناقشة دور الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية وتفسيره في قرار التَّقسيم، وإنشاء دولة إسرائيل، وهو ابتعاد يقلل من القيمة العلمية الرفيعة التي تمتع بها هذا الكتاب⁽¹⁾.

(8) يحلّل الباحث الحركات الإسلامية المختلفة من ناحية كونها مؤيدة للسلطان أو مناهضة له؛ فكانت الجبرية عنصرًا مؤيدًا للأمويين، وكانت القدرية مناهضة لها، وهذا ما يتفق مع فكره الذي يؤمن بصراع الأضداد.

(9) في الفصول الأخيرة يرى الباحث أن دور الدين أخذ بالتراجع مع بروز القومية العربية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

(10) يرى الباحث أن الاستعمار حاول جاهدًا إذكاء الطائفية في العالم العربي والإسلامي من أجل بسط سيطرته على البلاد، فأكد أن هذه المحاولات تقف أمامها تيارات واعية لا تقبل بها، وتناهضها مناهضة كبيرة.

¹ -توما، إميل. جذور القضية الفلسطينية. حيفا، 1968. ص.306.

ملخص

في هذا البحث حاولنا جاهدين أن نعرّف القارئ على هذه الشّخصيّة التي كتبت الكثير من التّاريخ الفلسطيني؛ حتّى أنّ كثيراً من النّقّاد أطلقوا عليه لقب: مؤرّخ القضية الفلسطينيّة.

لا شكّ لدينا أنّ إميل توما أثرى المكتبة العربيّة في الكتب المتنوّعة التي تناول البحث فيها، فرأينا غزارة الإنتاج لدى هذا الباحث سواء على الصّعيد السّياسي، أو الفكريّ والفلسفيّ والوطنيّ الذي شغل باله في حياته العريضة.

في الفصول الأولى تطرّقنا إلى حياة وثقافة هذا الباحث، وتعرّفنا على فكره الماركسيّ الذي طغى على تفكيره بشكل كبير.

في بحثنا هذا ناقشنا كتاب "الحركات الاجتماعيّة في الإسلام" ورأينا أنّ الباحث خرج وانتهى إلى زاوية محدّدة في تحليله وقراءته للتّاريخ. فكانت المادّيّة التّاريخيّة والحتميّة التّاريخيّة، وصراع الأضداد هي المنبع والغاية التي يسجّل الباحث استقراءاته واستنتاجاته.

والحقّ أنّ الباحث لم يرَ في الدّيانات شيئاً سماوياً، أو إلهياً؛ وإنّما نظر إلى هذه الظّواهر من وجهة نظر مادّيّة، أدّت به إلى الخروج أنّ هذه الدّيانات كانت حركات ثوريّة، وصراع طبقات بين الأغنياء والفقراء؛ وعليه فإنّه رأى في الحركات المتطرّفة مثل "الإسماعليّة" أو "القرامطة" نموذجاً للمدّ الثّوري الذي يمتدحه ويدافع عنه، مهملاً الجوانب الأخرى التي لا تتفق وعقيدته؛ وهذا ما كان طاغياً على تحليله في الحركات الأخرى في الإسلام التي عالجهّا معالجة مادّيّة ماركسيّة بحتة.

المراجع

- (1) توما، إميل. جذور القضية الفلسطينية. حيفا: دن، 1968.
- (2) توما، إميل. الحركات الاجتماعية في الإسلام. دم: منشورات صلاح الدين، 1979.
- (3) الطّبري، محمّد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. بيروت: دار الكتب العلميّة، 1407هـ.
- (4) عمل، إسكندر. دراسات في مؤلّفات إميل توما. حيفا: دن، 1989.
- (5) الموسوعة الفلسطينية (الدراسات الخاصّة). بيروت: دن، 1990.
- (6) www.diwanalarab.com